خير الدين الزركلي

أعـــلام المؤرخـــين

obeikandl.com

obeikandl.com

شيخ المؤرخين المعاصرين
خير الدين الزركلي

هو خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي، ولد في بيروت في ٢٥ حزيران ١٨٩٣م حيث كان والده تاجراً هناك، والده وأمه دمشقيان.

نشأ الزركلي في دمشق، وتعلم في مدارسها الأهلية، وأخذ عن معلميها الكثير من العلوم خاصة الأدبية منها، كان مولعًا في صغره بكتب الأدب، وقال الشعر في صباه. أتم دراسته (القسم العلمي) في المدرسة الهاشمية بدمشق،ثم عمل فيها مدرساً بعد التخرج، كما أصدر مجلة (الأصمعي) الأسبوعية فصادرتها الحكومة العثمانية. انتقل إلى بيروت لدراسة الآداب الفرنسية في الكلية العلمانية (اللاييك)، بعد التخرج عين في نفس الكلية أستاذاً للتاريخ والأدب العربي.

بعد الحرب العالمية الأولى، أصدر في دمشق جريدة يومية أسماها (لسان العرب) إلاّ أنها أُقفلت، ثم شارك في إصدار جريدة المفيد اليومية وكتب فيها الكثير من المقالات الأدبية والاجتماعية.

على إثر معركة ميسلون ودخول الفرنسيين إلى دمشق حُكم عليه من قبل السلطة الفرنسية بالإعدام غيابيًّا وحجز أملاكه إلاّ أنه كان مغادراً دمشق إلى فلسطين، فمصر فالحجاز.

سنة ١٩٢١م تجنس الزركلي بالجنسية العربية في الحجاز، وانتدبه الملك حسين بن علي لمساعدة ابنه (الأمير عبد الله) بإنشاء الحكومة الأولى في عمّان، حيث كلّف مفتشاً عاماً لوزارة المعارف ثم رئيساً لديوان الحكومة (١٩٢١- ١٩٢٣).

ألغت الحكومة الفرنسية قرار الإعدام على الزركلي فرجع إلى سورية، ومن ثم غادرها إلى مصر، وهناك أنشأ (المطبعة العربية) حيث طبع فيها بعض كتبه وكتباً أخرى.

أصدر في القدس مع رفيقين له جريدة (الحياة) اليومية، إلاّ أن الحكومة الإنجليزية عطّلتها فأنشأ جريدة يومية أخرى في (يافا)، واختير عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٣٠ م.

عينه الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود سنة ١٩٣٤ م مستشاراً للوكالة ثم (المفوضية) العربية السعودية بمصر، كما عُيّن مندوباً عن السعودية في مداولات إنشاء (جامعة الدول العربية)، ثم كان من الموقعين على ميثاقها.

مثّل الأمير فيصل آل سعود في عدة مؤتمرات دولية، وشارك في الكثير من المؤتمرات الأدبية والاجتماعية، وفي عام ١٩٤٦م عين وزيراً للخارجية في الحكومة السعودية متناوباً مع الشيخ يوسف ياسين، وكذلك متناوباً معه العمل في جامعة الدول العربية، واختير في نفس العام عضواً في مجمع اللغة العربية بمصر.

عام ١٩٥١م عين وزيراً مفوضاً ومندوباً دائماً لدى جامعة الدول العربية، فاستقر في مصر، وهناك باشر بطبع مؤلفه (الأعلام).

من عام ١٩٥٧م وحتى عام ١٩٦٣، عين سفيراً ومندوباً ممتازاً (حسب التعبير الرسمي) للحكومة السعودية في المغرب كما انتخب في المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٦٠.

منحته الحكومة السعودية بسبب مرض ألمّ به إجازة للراحة والتداوي غير محدودة، فأقام في بيروت وعكف على إنجاز كتاب في سيرة عاهل الجزيرة الأول (الملك عبد العزيز آل سعود) وأخذ

يقوم من حين لآخر برحلات إلى موطنه الثاني السعودية ودمشق والقاهرة وتركيا وإيطاليا وسويسرا. قام برحلات إلى الخارج يذكر أنها أفادته كثيراً.

- إلى إنجلترا سنة (١٩٤٦م) ومنها إلى فرنسا، ممثّلا للحكومة السعودية في اجتماعات المؤتمر الطبي الأول في باريس.

- إلى الولايات المتحدة الأمريكية سنة (١٩٤٧م) بمهمة رسمية غير سياسية، حضر خلالها بعض اجتماعات هيئة الأمم المتحدة.

- إلى آثينا العاصمة اليونانية سنة (١٩٥٤م) بصفة (وزير مفوض ومندوب فوق العادة) وجعل طريق عودته منها إلى استانبول لزيارة بعض مكتباتها.

- إلى تونس سنة (١٩٥٥م) مندوباً لحضور مؤتمر أقامه الحزب الدستوري فيها، ومنها إلى إيطاليا لزيارة أهم مكتباتها.

كان شاعراً مجيداً، ومؤرخاً ثقة، ويكفيه أنه صاحب الأعلام.

قام خير الدين الزركلي في مصر بدور مميز في تنفيذ المهمات القومية السياسية والإعلامية، وذلك من خلال اللقاءات والاجتماعات وكتابة المقالات ونشر الأشعار القومية والوطنية. وتناول الزركلي المستعمرين وأذنابهم بنبرة حادة خشيها الفرنسيون في سوريا كثيراً، فحكموا عليه غيابيًّا بالإعدام وبحجز أملاكه، وقد تلقى الزركلي النبأ برباطة جأش وقال:

نذروًا دمي حنقــاً علــي وفــاقهم ::: أن الشــقي بمــا لقيــت ســعيد
الله شــاء لي الحيــاة وحــاولوا ::: مــا لم يشــأ ولحكمــه التأييــد

وعندما انطلقت الثورة السورية عام ١٩٢٥م، انطلقت ثورة الزركلي الشعرية بكل لهيبها وروحيتها العربية، فأخذ ينظم القصائد

ويرسلها إلى دمشق إماً منشورة على صفحات الجرائد المصرية، وإماً بوسائل النقل الأخرى، فأصبحت أبيات قصائده الوطنية على ألسنة الناس يتغنون بها في شوارع المدن السورية. وكانت ردود الفعل الفرنسية أقوى من ردود فعلها عام ١٩٢٠م فأذاعت حكماً عليه ثانياً غيابيًّا بالإعدام، وطالبت الحكومة المصرية بإسكاته أو طرده من مصر غير أن الزركلي لم يكترث وظل يرسل قصائده الوطنية من القاهرة سرًّا، شاحذاً همم العرب حتى لا يسكتوا على الاستعمار ولا يتوانى أحدهم عن النضال. يقول:

تأهبوا لقـراع الطـامعين بكـم ::: ولا تغـركم الآلاء والـنعم

كان الزركلي يراقب ويتابع أحداث وطنه من بعيد، لذلك نراه يشارك إخوانه آلامهم حين ضربت دمشق بالقنابل عام ١٩٢٥م، فيقول في قصيدته (بين الدم والنار):

الأهل أهلـي والـديار ديـاري ::: وشعار وادي الـنيربين شـعاري
ما كـان مـن ألم بجلـق نـازل ::: وأرى الزنـاد فزنـده بي واري

ويحس الزركلي أن دم الثوار الذي يراق في دمشق هو دمه، فيقول:

إن الـدم المهـراق في جنباتهـا ::: لـدمي وأن شـفارها أشـفاري
دمعي لما منيـت بـه جـار هنـا ::: ودمي هناك على ثراهـا جـاري

بنى الزركلي علاقات حميمة مع الكتاب والشعراء والمفكرين في مصر، من منطلق أهمية الكلمة التحضيرية في تعزيز الشعور الوطني والقومي في نفوس الجماهير العربية التي تعيش الهم القومي بكل جوانبه من هؤلاء الشاعر أحمد شوقي الذي ألقى قصيدته في حفل أقيم في القاهرة عام ١٩٢٦م، لإعانة منكوبي سوريا حين قامت بالثورة ضد المستعمر الفرنسي والتي مطلعها:

سـلام مـن صـبا بـردى أرقّ ::: ودمع لا يكفكـف يـا دمشـق

يشخص الزركلي صورة الدأب العلمي المنتج في كتابه الأعلام الذي جمع فيه فأوعى فكان بحق أيسر وأشمل معجم عربي مختصر في تاريخ الرجال. فكان الزركلي في حياته مثالاً: للثائر والشاعر والباحث.

في الخامس والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٧٦، توفي أبو الغيث خير الدين الزركلي.

له من المؤلفات:

- كتاب (ما رأيت وما سمعت)، سجل فيه أحداث رحلته من دمشق إلى فلسطين فمصر فالحجاز.

- الجزء الأول من ديوان أشعاره، وفيه بعض ما نظم من شعر إلى سنة صدوره (١٩٢٥).

- كتاب (عامان في عمّان)، مذكرات الزركلي أثناء إقامته في عمّان وهو في جزآن.

- ماجدولين والشاعر، قصة شعرية قصيرة.

- كتاب شبه الجزيرة في عهد الملك بن عبد العزيز.

- كتاب (الأعلام)، وهو قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين يقع في ثمانية مجلدات.

- الملك عبد العزيز في ذمة التاريخ.

- صفحة مجهولة من تاريخ سوريا في العهد الفيصلي.

- الجزء الثاني من ديوان أشعاره (١٩٢٥- ١٩٧٠ م).

- قصة تمثيلية نثرية أسماها (وفاء العرب) [1].

ويعد كتاب " الأعلام " من أشهر ما ألف في تراجم الأعلام، قديمًا وحديثًا، وأكثرها فائدة، وأوسعها مادة.

وقد بين الزِّركلي شرطه فيمن يترجم له فقال: «أن يكون لصاحب الترجمة علم تشهد به تصانيفه، أو خلافة أو ملك أو إمارة، أو منصب رفيع كوزارة أو قضاء كان له فيه أثر بارز، أو رياسة مذهب، أو فن تميز به، أو أثر في العمران يذكر له، أو شعر، أو مكانة يتردد بها اسمه، أو رواية كثيرة، أو يكون أصل نسب، أو مضرب مثل. وضابط ذلك كله: أن يكون ممن يتردد ذكرهم، ويسأل عنهم » ا. هـ.

قال الطناحي: «وقد أفسح الزركلى في كتابه، مكاناً لهؤلاء النفر من المستشرقين، الذين قدموا خدمة للعربية، في مجال الدراسات ونشر النصوص. " ا. هـ

- وبين المؤلف أيضًا الباعث لتأليفه فقال: (في الخزانة العربية فراغ، وفي أنفس قرائها حاجة، وللعصر اقتضاء. يعوز الخزانة العربية كتاب يضم شتات ما فيها من كتب التراجم، مخطوطها ومطبوعها.. وقد حاولت بهذا الكتاب أن أملأ جانبًا صغيرًا من هذا الفراغ، وأمضي بعض تلك الحاجة، وأقوم بشيء مما يقتضيه العصر، وعساي أن أوفق).

وترجم الزركلي الأعلام على الترتيب الهجائي في الاسم الأول والثاني، ولم يترجم أعلامه على الشهرة، بيد أنه وضع لها إحالة

(١) انظر مقدمة كتاب الأعلام، لخير الدين الزركلي، من طبع ونشر وتوزيع دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة العاشرة، ١٩٩٢.

تدلك على صاحبها. فابن جرير الطبري تبحث عنه في الشهرة أولا، ثم تبحث عن اسمه.

مثلا: ابن جرير= محمد بن جرير ٣١٠

الطبري = محمد بن جرير ٣١٠

والرقم الذي يلي الاسم هو تاريخ الوفاة.

والزركلي لم يعتمد في الترتيب الهجائي سوى الاسم الأول والثاني فقط، فكل (أحمد بن محمد) عنده (هجائيا) في نسق واحد، ولكن يرتب بينهم بحسب الوفاة معتمدا التاريخ الهجري. مثلا:

أحمد بن محمد بن يوسف ٣٦٠ قبل أحمد بن محمد بن إبراهيم ٤٥٠.

وطبع كتاب الأعلام عدة طبعات:

* الطبعة الأولى (سنة ١٣٤٥ هـ): بالمطبعة العربية بمصر التي كان يملكها الزركلي في ثلاثة مجلدات مجموع صفحاتها ١١٨٧.

* الطبعة الثانية: بعد ٣٠ عامًا (سنة ١٣٧٧ هـ) في عشرة مجلدات، العاشر منها مستدرك لما فاته في الأجزاء التسعة من خطأ في ترجمة أو تصحيح في أخرى، وأضاف إليها نماذج من خطوط بعض المترجمين، وكذلك صورًا لبعض الأعلام، وتمتاز هذه النماذج والصور بالجودة التي ضعف بهاؤها في الطبعات اللاحقة ووضع فهرسًا للخطوط والصور، وجاءت هذه الطبعة ثلاثة أضعاف الطبعة الأولى.

* الطبعة الثالثة: في بيروت (سنة ١٣٨٩ هـ) في أحد عشر مجلدًا وهي عبارة عن الطبعة الثانية إلا أنه أدخل في صلب التراجم

بعض التصحيحات (أصلح ما استطاع إصلاحه المتن من غير إخلال في أرقام الصفحات. كما ألحق مستدركًا ثانيًا في مجلد سماه: «المستدرك الثاني» جعل فيه بعض التصحيحات، وفي هذه الطبعة استل نماذج الخطوط والصور فجعلها في مجلد مستقل ولم تختلف الصفحات في الطبعة الثانية، حيث أنه لم يكن لنماذج الخطوط والصور أرقام صفحات.

* الطبعة الرابعة: (سنة ١٣٩٩ هـ) بدار العلم للملايين ببيروت في ثمان مجلدات من القطع الكبير وهي بعد وفاة مؤلفه [فتولى الإشراف عليها بعد موته صديقه وابن شيخه (ظافر القاسمي) نجل شيخ الشام جمال الدين القاسمي، وشاركه في الإشراف الشيخ زهير جاويش والأستاذ زهير فتح الله.]، وقد كان الزركلي أضاف إليها كتابه «الإعلام بما ليس في الأعلام » الذي كان ينوي طباعته مستقلا عن كتابه الأول، كما أضيفت إلى هذه الطبعة المستدركات التي كانت مستقلة ووضعت في أماكنها وكذلك نموذج من خط المُترجم وصورته بجوار ترجمته إلا أنه أثناء الطباعة سقطت بعض التراجم فتجد الإحالة ولا تجد الترجمة، بل قد تجد نموذجًا من خط المُترجم ولا تجد ترجمته. مثل: عبد اللطيف بن عبد المنعم الحراني ٤: ٥٩، وعن هذه الطبعة بقية الطبعات اللاحقة إلا أننا نجد في بعض الطبعات زيادة أو نقصانًا..

ويتميز هذا الكتاب بعدة مميزات فيقول الطناحي «: ومحاسن هذا الكتاب كثيرة، وإن فاتنى ذكر هذه المحاسن مجتمعة، فإني أشير إلى أبرزها:

١ - الدقة البالغة في تحرير الترجمة، وإبراز أهم ملامح العلم المترجم.

٢ - ذكر ما قد يكون من خلاف، في الاسم، والمولد والوفاة، ونسبة الكتب مع اتخاذ مواقف الحسم، أو الترجيح.

٣ - تنقية بعض كتب التراجم مما علق بها، من وهم، أو تصحيف، أو تحريف.

٤ - الرجوع في توثيق الترجمة إلى المصادر المخطوطة، إذا عزت المطبوعة، أو كانت الثقة بها نازلة.

٥ - الاستعانة بالمراجع الحية، من أهل العلم، والمنتسبين إلى مذهب المترجم.

٦ - جلاء الغموض الذي يكتنف بعض الأعلام.

٧ - التنبيه على بعض الفوائد العلمية.

٨ - الإنصاف والبعد عن الهوى، وسوق الرأي الخاص ملففاً في بجاد النزاهة والتصون. وأكثر ما ترى ذلك في تراجم المعاصرين، من أهل الفكر والأدب والسياسة.

٩ - الإحالة الذكية بعد الفراغ من الترجمة إلى أصول المصادر والمراجع.

١٠ - ذكر نفائس المخطوطات ونوادرها، التي رآها في رحلاته وأسفاره. وكذلك التي أطلعه عليها أصدقاؤه، وفي مقدمتهم السيد أحمد عبيد، بدمشق، وما أكثر ما أشار إليه في تعليقاته.

١١ - إثبات صور خطوط العلماء قديماً وحديثاً. وهذا يفيد في توثيق المخطوطات التي يقال: إنها بخطوط مؤلفيها. فعن طريق مضاهاة ما بيدك منها بما أثبته من تلك النماذج للخطوط، يظهر لك وجه الصواب، أو الخطأ.

ويتصل بذلك إثباته لتوقيعات الخلفاء والملوك والأمراء والوزراء وصور المحدثين من المعاصرين، ومن قرب منهم، ممن أدركهم فن التصوير الفوتوغرافي.

١٢ - وقد زان ذلك كله حسن البيان، وصفاء العبارة. فالرجل رحمه الله، كان أديباً شاعراً. وقد كان الأدب وما زال خير سبيل لإيصال المعرفة، وسرعة إيصالها إلى السمع، واستيلائها على النفس. والبليغ يضع لسانه حيث أراد. وإنك لتجد كثيراً من الدراسات قد جمعت فأوعت، لكنها لم تبلغ مبلغها من النفع والفائدة؛ لجفافها وعسرها.

أما ما وراء ذلك من حلو الشمائل، وكرم الطبع، ونقاء الخلق، فهو مما لهج به الخاصة والعامة، ممن اتصلوا بالرجل، بسبب من الأسباب.

ولست أشك في أن إقامة الزركلي - رحمه الله - في مصر والمغرب، سنين ذوات عدد، قد أعانته على إقامة ذلك الصرح الشامخ. وآية ذلك أن كثيراً من نماذج المخطوطات، التي امتلأ بها كتابه، من محفوظات دار الكتب المصرية، ومعهد المخطوطات بالقاهرة، وخزائن الكتب الخاصة والعامة، بالمغرب الأقصى. " ا. هـ كلام الطناحي رحمه الله.

ومما أُخذ على الكتاب:

قال أحمد العلاونة: بذل المؤلف ما وسعه من - جهد في جمع التراجم وتحريرها، بيد أن عمله - كأي عمل آخر - لا يخلو من مآخذ وهنات، وإذا قيست مآخذه وهناته بعمله الجريء، كانت كأنها لم تكن. وأجملتُ المآخذ بما يلي:

١ - لم يترجم مشاهير قدماء وعصريين مثل أحمد بن هبة الله المدائني صاحب كتاب أحكام الجدل والمناظرة، والقاسم بن محمد بن

علي الشاشي صاحب التقريب، والشاعر ابن زريق البغدادي وأبو بكر محمد ابن داود الداوودي وابن المكوي.

ومن العصريين: الدكتور محمد غنيمي هلال، وإبراهيم حمروش، وممدوح الشريف (الخطاط).

٢ - الإيجاز المخل لبعض المشاهير مثل: الحريري صاحب المقامات.

٣ - لم يترجم للأنبياء الذين ذكر اسمهم في القرآن الكريم، ولم يترجم إلا للأنبياء: محمد، وشعيب، وأيوب، وهود، وإسماعيل، وصالح صلوات الله عليهم.

٤ - لم يترجم لسلاطين الدولة العثمانية، مع أنه ترجم للمماليك والمستشرقين.

٥ - ترجم لمجاهيل، أو ممن هم ليسوا أحقاء بالترجمة، منه وهو كثير: محمد هادي ١٢٧/٧، والحسيني ١٢٩/٧، والحلاق ١٥٦/٧، والكشميري ١٢٣/٧، ومهدي الكاظمي ٣١٢/٧، والنوري ١٣١٤/٧ اهـ.

- قالوا عن الكتاب:

يقول محمود الطناحي:

أما « الأعلام » فهو خير كتاب ألف في بابه، بل هو خير ما كتب كاتب في تراجم الرجال والنساء في هذا العصر.

وخلاصة القول: أن هذا الكتاب أبلغ رد على من يزعم أن العرب المعاصرين لم يصنعوا شيئاً ذا بال، في تاريخ رجالهم وأعلامهم. وأنه لا ينبغي أن تخلو مكتبة طالب علم من هذا الكتاب.

يقول الشيخ علي الطنطاوي:

كتاب الأعلام للزركلي أحد الكتبِ العشرةِ التي يفاخر بها هذا القرن القرون السابقاتِ [1].

* * *

(١) انظر: محمود الطناحي، الموجز، أحمد العلاونة، ذيل الأعلام، محمد بن عبد الله، الرشيد الإعلام بتصحيح كتاب الأعلام.

obeikandl.com